



الحمد لله رب العالمين؛ جعل الإيثار شعار المفلحين، وصفة من صفات المرسلين؛ تحقيقاً لقول الله - تعالى - في محكم التنزيل: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ وَهَا جَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُوْلَهُمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِرُونَ) [التجويف: 20].

أحمده - سبحانه وتعالى - وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، ونحوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سينات أعمالنا، وخواطر الْهَوَى التي تردد على قلوبنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، قال في هديه النبوى الكريم: ((إِنَّ لِلشَّيْطَانَ لَمَّةً بَيْنَ أَدْمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً, فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ, فَإِيَّادُهُ بِالشَّرِّ, وَتَكْذِيبُهُ بِالْحَقِّ, وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ, فَإِيَّادُهُ بِالْخَيْرِ, وَتَصْدِيقُهُ بِالْحَقِّ, فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ, فَلِيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ, فَلِيَحْمِدِ اللَّهَ, وَمَنْ وَجَدَ أَخْرِيَّ, فَلِيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ)).

ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله - تعالى - : (الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ) [آل عمران: 268].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسِلِّ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، الَّذِينَ كَانُوا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُهْتَدِينَ، فَتَخَلَّقُوا بِالْفَضَائِلِ، فَأَثْرَوُا الْحَقَّ، وَجَانَبُوا الْهَوَى، وَبَذَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ؛ ابْتِغَاءَ مِرْضَاتِ اللَّهِ؛ تَحْقِيقًا لِقَوْلِ اللَّهِ - تعالى - : (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْفِهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ: 39].

أَمَّا بَعْدُ:

فِي أَيْهَا الْإِخْرَاجِ الْمُؤْمِنُونَ، يَقُولُ اللَّهُ - تعالى - في كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتُكُمْ مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرِحْمَتِهِ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرُ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يُونُس: 57 - 58].

أيها المسلمون، هذه آية من الذكر الحكيم، تخبر عن أعظم الفضائل التي جمعت خلال الخير وشمائل البر، ألا وهي فضيلة الإيثار والبذل في أوجه الخير؛ رعاية في حق المجتمع، ورغبة في مجد الوطن، ثم جاءت الآية الثانية؛ لتوضح جزء هؤلاء الذين يحبون الخير لإخوانهم، ويحبونه لمجتمعهم الذي يرقى ويسعد بهم.

لقد كان الإيثار في الإسلام خلقاً يجعل المؤمن يجود بنفسه وماليه، ومن هنا وضّح القرآن الكريم أهمّ صفات الأنصار في المدينة المنورة بالنسبة لإخوانهم من المهاجرين؛ فقال الله - تعالى - : **(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةً وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** [الحشر: 9].

إن صاحب العقيدة لا يدخل بعزيز لدّيه في سبيل عقيدته وحماية شريعته؛ لذلك عقد الله البيعة مع عبادة المؤمنين؛ فقال - تعالى - : **(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)** [التوبه: 111].

أيها المسلمون، إن الإيثار - الذي هو أهم سمات المؤمنين - هو حبُّ الخير للناس جميعاً، ونشر الإخاء ونبذ الأهواء؛ هي الدعائم التي تُسعد الأفراد، وترفع شأن المجتمعات، وهي أساس الخير وسبيل الإصلاح، الإيثار رمز المحبة والوفاق، وعنوان الرحمة والولئام والاطمئنان، به تقوى الروابط، وتتوثّق المودة، وتسود السكينة والطمأنينة، وتعلو الكلمة الخيرة، وتعُم النعمة والرحمة، فتنعم الأمم بحياة طيبة، وعيشة راضية؛ ولذا فقد امتحن الله - تعالى - الأنصار الذين آثروا إخوانهم من المهاجرين على أنفسهم، وجاؤوا لهم بأموالهم وأرزاقهم عن طيب خاطر، فطَيَّبَ الله قلوبَهم، وأثَنَى عليهم في كتابه العزيز، ومنحهم الله في الدنيا والآخرة وسام الفلاح والفوز بالجنة، فقال الله - تعالى - في حقهم: **(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** [الحشر: 9].

لقد نَمَّا هذا الخُلقُ الْكَرِيمُ، وانتشرَ في المجتمعِ الإِسْلَامِيِّ الأوَّلِ؛ حتَّى كان شعاراً لِهِمْ، ورِمْزاً لِإِيمَانِهِمْ، تروي كتب السيرة أنَّ أحدَ المُسْلِمِينَ جُرِحَ فِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ، فطلَبَ شربةَ ماءٍ، فسَارَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بَهَا، فسَمِعَ الْجَرِحِيْنَ أَنَّ جَرِحًا آخرَ يَطْلُبُ الماءَ، فَاثَرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ فِي أَشَدِ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَاءِ! مَا الَّذِي دَفَعَ هَذَا الْمُسْلِمَ الْجَرِحِيَّ إِلَى هَذَا الإِيثَارِ؟

إنَّ الإِيمَانَ الْقَوِيَّ، إِنَّ حَبَّهُ لِأَخِيهِ لَمْ يَدْعُهُ يَفْكِرَ فِي ذَاتِهِ، وَلَا أَنْ يُؤثِّرَ نَفْسَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا كَانَتْ أَخْلَاقُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، لَا تَعْرِفُ الْأَنْانِيَّةَ وَلَا حُبَّ الذَّاتِ، وَإِنَّمَا تَحْقِقُ الْأَخْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَحْقِيقًا كَامِلًا، بِلْ بِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ هَذِهِ الْكَلْمَةُ مِنْ مَعْنَى، فَأَخْوَةُ الدِّينِ أَعْلَى وَأَرْقَى، وَأَشْمَلُ وَأَوْسَعُ مِنْ أَخْوَةِ النَّسَبِ، فَالْمُؤْمِنُ أَخٌ لِلْمُؤْمِنِ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ، يُنَاصِرُهُ وَيُشَدُّ مِنْ أَزْرِهِ، فَيُطَعِّمُهُ مِنْ جُوعٍ، وَيُمْدُهُ بِالْمَالِ إِذَا احْتَاجَ، وَيُغْيِيَهُ إِذَا كَانَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْغُوثِ وَالنَّجْدَةِ.

أيها المسلمون، إنَّ العِيبَ كُلِّ العِيبِ، وَالْعَيْسَ وَالشَّقَاءَ، أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا لِأَمْوَالِهِ، تَسْتَخْدِمُهُ وَلَا يَسْتَخْدِمُهَا، وَيَمْرُضُ بَهَا وَلَا تَكُونُ لَهُ شَفَاءً، هَذَا الْمَرْضُ الْمُمْتَنَى فِي الْحَرْصِ عَلَى جَمْعِهَا، وَالشُّحُّ فِي إِنْفَاقِهَا، وَالْحُبُّ فِي كَنْزِهَا وَادِخَارِهَا، جَعَلَهُ يَفْضِّلُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ؛ قَالَ اللَّهُ - تعالى - : **(وَتَأْكُلُونَ التِّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمَّا)** [الفجر: 19 - 20].

إنَّ الرَّجُلَ التَّعِيسَ هُوَ الَّذِي لَا يَتَحَرَّى الْحَلَالَ فِي جَمْعِ مَالِهِ؛ لَأَنَّ حَبَّهُ لِجَمْعِ الْمَالِ هِيَمَنَ عَلَى جَوَارِحِهِ، بِغَصَّ النَّظَرِ عَنِ مَصَادِرِ هَذَا الْمَالِ، أَلْهَاهُ الْطَّمَعُ، وَشَغَلَهُ الْحَرْصُ، فَعَبَدَ الْمَالَ، وَنَسِيَ أَنَّ الْمَالَ مَالُ اللَّهِ - تعالى - وَهَذَا مَا حَذَرَ اللَّهُ مِنْهُ حِينَ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْبُّونَ بَيْوَاتَ اللَّهِ - تعالى - وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ بِالْخُدُوْنِ وَالْأَصَالِ.

فَقَالَ اللَّهُ - تعالى - عَنْهُمْ: **(رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)** [النور: 37].

هذا التعيس - الذي حذرنا القرآن منه - هو من عبد المال؛ قال الله في حكمه: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًا جَمًا) [الفجر: 20]، لا يوجد بالمال وقت الشدة وال الحاجة، ولا يسخو به في إقامة المشروعات النافعة التي يعود أثرها على أبناء المجتمع، ويعم خيرها أبناء المجتمع، ولكن للأسف الشديد يبذر ما تحت يديه في الشهوات والملذات، وربما بعثر ماله على موائد القمار والدمار، ويدخل بها في مواطن الشرف والعزّة والكرامة، لقد نَمَ رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هذا الصنف من الناس، وحَكَّمَ عَلَيْهِ بِالخَيْبَةِ وَالخَسْرَانِ، لَقَدْ وَجَّهَ رَسُولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الإِنْسَانَ وَحْتَهُ عَلَى الانتِفَاعِ بِمَالِهِ؛ حَتَّى يَكُونَ لَهُ وَقَايَةٌ مِنَ النَّارِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى إِنْفَاقِهِ فِي وِجُوهِ الْخَيْرِ وَالْبَرِّ، فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ((مَنْ تَصْدِقُ بَعْدَ تَمْرِةٍ مِنْ كَسْبِ طِبِّ، وَلَا يَقْبِلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَرِبِّهَا لِصَاحْبَهَا كَمَا يَرِبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ؛ حَتَّى تَكُونَ مِثْلُ الْجَبَلِ)) [الحديث متفق عليه]، والفلو: المهر أول ما يولى من الخيل.

لقد نَبَّهَ رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المُسْلِمَ إِلَى أَنَّ لِيَسَ لَهُ مِنْ مَالِهِ إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ، فَهُوَ تَارِكُهُ لِلنَّاسِ، وَمَحَاسِبُ عَلَيْهِ؛ يَقُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ((يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَنْفَنَ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سُوِّى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ)) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ].

وَمِنْ هَنَا شَوَّقَ رَسُولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبْنَاءَ إِلْسَامٍ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي أَوْجَهِ الْخَيْرِ، وَإِلَى الإِسْهَامِ الْفَعَالِ فِي بَنَاءِ الْمَجَمُوعِ، وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الْإِنْفَاقَ يَدْفَعُ عَنْهُمُ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ: ((صَنَاعَ الْمَعْرُوفِ تَقِيُّ مَصَارِعِ السُّوءِ، وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفَئُ غَصْبَ الرَّبِّ، وَصَلَةُ الرَّحْمَنِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ)) [أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ].

وَكَمَا رَغَبَ رَسُولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْإِنْفَاقِ فِي أَوْجَهِ الْبَرِّ، حَذَرَ مِنَ الشُّحِّ وَالْإِمْسَاكِ، فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَبْذِلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكَهُ شُرُّ لَكَ، وَلَا تَلِمْ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدِأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلِيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلِيِّ)) [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي أُمَّامَةَ].

فَاتَّقُوا اللهَ - عِبَادُ اللهِ - وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَثْرَةَ وَحُبُّ الدَّازِّ هَادِمَةٌ لِلشَّرْفِ، دَاعِيَةٌ لِلتَّلَفِ، مُفْسِدَةٌ لِلْمَجَمُوعِ، مُعْطِلَةٌ لِلْعُمَرَانِ، فَطَهَّرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا، وَتَخَلَّقُوا بِخُلُقِ الإِبْتَارِ الْكَرِيمِ.

وَانهَجُوا مَنَاهِجَ الْعَالَمِيْنَ الْمُخَلِّصِيْنَ، تَفَوَّزُوا مَعَ الْفَائِزِيْنَ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ؛ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)) [رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ].